الفصل الخامس:
تفضيل المرأة الولود في الزواج

جعل الله سبحانه وتعالى المال والبنون زينة للحياة الدنيا. يقول عز وجل:{ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾} [الكهف: ٤٦]. وليس لهذه الزينة الدنيوية إلا طريق واحد هو اللجوء إلى الله تعالى وطاعته. فهو طريق آمن يجعل هذه الزينة نافعة في دارى الدنيا والآخرة. فالطاعة الدائمة لله رب العالمين ولرسوله الأمين صلى الله عليه وسلم والاستغفار الدائم من الذنوب هما خير السبل الموصلة إلى المال والبنين. ولذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان نوح عليه السلام:{فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾} [نوح: ١٠ - ١٢]. فالعليم الخبير سبحانه خالق النفوس الإنسانية، يعلم أن هذه النفوس تميل دائما إلى الولد. ولذلك دلها سبحانه وتعالى على أفضل الطرق المؤدية إلى الفوز بهذا الشطر من الزينة الدنيوية وهو الولد بل بالشطرين معا - المال والبنون.

وهذا الطريق هو طاعة الله القادر على كل شيء والإكثار من الاستغفار فالنفس الإنسانية تخطئ بالليل والنهار وربها الخالق العظيم يغفر الذنوب جميعا وفى لفتة كريمة يلقى مزيدا من الضوء على هذه الفكرة، الإمام زين العابدين محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فقد وضح رضى الله عنه أحد الجوانب المطلوبة لإنجاب الولد، الذي تتطلع إليه أفئدة كثير من الناس. فقد أتاه رضى الله عنه رجل يسأله النصيحة لإنجاب الولد، فقال له: أكثرْ مِنَ

الاستغفار. ففرح الرجل بالنصيحة وانصرف. لكنه سأل نفسه في الطريق: لقد طلبت منه نصيحة لإنجاب الولد فدلنى على كثرة الاستغفار. فما هى العلاقة بين الاستغفار وإنجاب الولد؟! ولما عجز عن إدراك هذه العلاقة والإجابة عن السؤال الذي طرحه على نفسه - عاد إلى شيخه الناصح ليستفسر منه عن تلك العلاقة. فأجابه الشيخ الناصح بقوله: يا هذا ألم تقرأ قوله تعالى: {فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾} [نوح: ١٠ - ١٢]. فانصرف الرجل وهو سعيد بما سمع من شيخه[1].

وإذا كان الإسلام قد دل المسلم على طريق التمتع بزينة الحياة الدنيا - فقد بين الله في نفس الوقت أن زينة الحياة الدنيا - المال والبنون - سلاح ذو حدين فهو عادة يجلب النفع والخير لكنه قد يجلب الشر إذا لم يحسن الإنسان استخدامه. فقد ينصرف المسلم ضعيف الإيمان بهذه الزينة عن ذكر الله الخالق الرازق وينسى الطريق إليه سبحانه وينشغل بماله وبنيه عن طاعة الله عز وجل والاستغفار الدائم له. وهنا يحذرنا المولى الكريم من هذا الانشغال والانصراف عن ذكر الله وطاعته واستغفاره. فيقول جل شأنه: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾} [المنافقون: ٩]. ويقول أصدق القائلين سبحانه: {إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾} [التغابن: ١٥]. وهذا تحذير للمسلمين والمسلمات من الانشغال بهذه الفتنة عن ذكر الله عز وجل.

وكما أشار القرآن الكريم إلى أهمية الولد في حياة الإنسان -

(1) نقلا عن الشيخ إبراهيم جلهوم، إمام مسجد السيدة زينب بالقاهرة رحمه الله.

كذلك أشارت السنة النبوية الكريمة إلى ذلك. فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول:ﷺ**الولد ثمرة القلب، وإنه من ريحان الجنة**ﷺ [1]. ويشير صلى الله عليه وسلم إلى بعض فضل الولد على والده في الدنيا فيقول صلى الله عليه وسلم :ﷺ**لا يدع أحدكم طلب الولد، فإن الرجل إذا مات وليس له ولد انقطع اسمه**ﷺ [2].. وهناك أقوال أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر وردت في كتب السنة النبوية المباركة. ورغم هذا لم تغفل السنة الكريمة عن ذكر فضل البنت على أبويها والحث على عدم كراهية إنجاب البنات ونبذ هذه الفكرة الجاهلية. ومما ورد في ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم :ﷺ**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهذا، وضم أصبعيه**ﷺ [3]. وقوله صلى الله عليه وسلم :ﷺ**من كانت له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وعلى ضرابهن دخل الجنة**ﷺ. وفى رواية: فقال يا رسول الله واثنتين؟ قال:ﷺ**واثنتين**ﷺ، قال يا رسول الله وواحدة؟ قال:ﷺ**وواحدة**ﷺ [4]. وقوله صلى الله عليه وسلم :ﷺ**من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن، وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابا من النار**ﷺ [5]...

وهكذا نجد كثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة تحدثت عن فضل

(1) رواه الترمذى ص156، من كتاب مختار الأحاديث النبوية، حرف الواو، للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمى.

(2) رواه أحمد بسند حسن145/16، من الفتح الربانى. والبيهقى في السنن 81/7 - 82 ص90 - من كتاب منهج السنة في الزواج.

(3) ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ص16، من تحفة المودود بأحكام المولود - لابن القيم الجوزية.

(4) ص17من كتاب تحفة المودود بإحكام المولود - لابن قيم الجوزية.

(5) رواه الإمام أحمد في مسنده ص18 - من كتاب تحفة المودود - جدته: ماله وثروته. ويقال كلما جدد له ولأسرته الثياب جدد لبناته.

إنجاب البنات وتربيتهن والإحسان إليهن والصبر عليهن وأثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جزاء ذلك هو الفوز بالجنة ونعيمها والنجاة من النار ولهيبها وذلك هو الفوز المبين.

ولكل ما سبق حرصت السنة النبوية الكريمة على التنبيه إلى فضل وتفضيل المرأة الولود في الزواج. ومن ذلك ما ورد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالباءة وينهى عن التبتل نهيا شديدا ويقول:♂**تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة**ـــ [1]. ويقول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن أيضا:♂**لا تتزوجوا عجوزا ولا عاقرا فإنى مكاثر بكم الأمم**ـــ [2].

فهنا نهى من رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين والمسلمات عن أن يزوجوا أبناءهم عجوزا أو عاقرا. فالعجوز لا تلد عادة والعاقر جربت ولم تلد. والاستثناء الوحيد هنا أن تتدخل إرادة الله فتكتب لهما أو لإحداهما الإنجاب. ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم :♂**خير نسائكم العفيفة الغلمة، عفيفة في فرجها غلمة على زوجها**ـــ [3].

وتعرفُ الناس على المرأة الولود لاصعوبة فيه على الإطلاق. فالمرأة الولود تُعرفُ أولا بسلامتها العامة من الأمراض والعلل. وتعرف كذلك بأحوال أمها وأخواتها وعماتها وخالاتها اللائى يتصفن

(1) رواه الإمام أحمد وأبو حاتم في صحيحه. ص10 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية. والتبتل: الإقبال على العبادة والبعد عن الزواج.

(2) رواه الطبرانى في الكبير والحاكم في مستدركه ص54 - من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى - العاقر: التي لا تلد أى العقيم.

(3) رواه الديلمى عن أنس - الغلمة: شديدة الشوق إلى جماع زوجها دائما. ص74 من كتاب مختار الأحاديث النبوية

بهذه الصفة. وقد قطع الطب شوطا كبيرا في هذا المجال. فيمكن الرجوع إلى الأطباء المتخصصين لمعرفة المرأة الولود. وخصوصا إذا دعت الحاجة إلى ذلك. فقد تبدو البنت أو المرأة سليمة من الأمراض والعلل، وكذلك قريباتها، ومع ذلك لا تنجب. وعادة ما يكون السبب في ذلك علة في الرحم أو البويضة أو نحو ذلك من الأمور المتصلة بعدم الإنجاب. ويعالج الطب الآن الكثير من هذه الأحوال. واللجوء إلى الطب هنا واجب حتمى وشرعى. حتى تنتفى تهمة الإهمال عن الزوج والزوجة في هذا المجال الحيوى لسعادة الأسرة.

هذا بالإضافة إلى تجنب الزواج من القرابة القريبة أو البعيدة إذا كان هناك مرض خطير لايمكن إغفاله عند المرأة المرشحة للزواج من قريبها، أو عند الرجل المرشح للزواج من قريبته، أو وُجدت شبهة مرض خطير عند أحد الطرفين أو أقاربه يمكن أن ينتقل عن طريق الوراثة كما سبق توضيحه. ويجب كذلك تجنب أصحاب العاهات والعلل والأمراض المتصلة بالإنجاب من الأقارب ذكورا أو إناثا. فالكثرة الضعيفة المهددة دائما بالأمراض والعلل، تكون عبئا على الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامى. وهنا تكون أهمية الاختيار وتبرز أسسه. فيختار الزوج المناسب القادر على الكسب وعلى رفع مستوى الدخل والإنتاج لأسرته الناشئة وبالتالى رفع مستوى الأمن لها من كافة الوجوه. فإذا حدث ذلك وحسُن الاختيار - أحست الأسرة الوليدة فعلا بالسعادة المرجوة في ظل كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...

ومع السلامة العقلية والجسمية وفي ظل هذه السلامة العقلية والجسمية للزوجين يبقى الأمل قائما في ثمرة هذا الزواج وهى

الذرية الصالحة التي يأمل الطرفان في الوصول إليها. فهى هدف أساسى تسعى إليه كل أسرة يكتب لها التكون والبقاء. وصدق ربنا العظيم حيث يقول في صفة من صفات عباد الرحمن{وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾} [الفرقان: ٧٤].. وهذا التكاثر القوى هو الذي يستحق أن يباهى به رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره من الرسل والأمم يوم القيامة. فالواجب إذن أن تجعل الأسر الناشئة هذا التكاثر ذا قوة وسعادة. فالكثرة هنا تكون محمودة. ويحذرنا الإسلام من الكثرة المذمومة التي لا قوة فيها ولا سعادة. ويصور لنا القرآن الكريم هذه الكثرة المذمومة في الغرور الذي أصاب المسلمين قبل غزوة حنين. يقول جل شأنه:{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] الآية. إذ لما أُعجِبَ المسلمون بكثرتهم في هذا اليوم وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة، وكانوا اثنى عشر ألفا ولم يتجاوز عدد عدوهم أربعة آلاف - ضاقت عليهم الأرض رغم اتساعها لشدة خوفهم من عدوهم رغم قلة عَدده وعُدده لأنهم كانوا كثرة ضعيفة مشغولة عن الجهاد بمتاع الدنيا فولوا أدبارهم هاربين منهزمين.. قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول:♂**أنا النبى لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب**═. ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال:♂**شاهت الوجوه**═ ففروا، فما بقى أحد إلا

ويمسح القذى عن عينيه [1]. وقال البراء شاهدا على شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورباطة جأشه في ساعات الشدة والخوف: " كنا والله إذا حمى البأس نتقى برسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن الشجاع منا الذي يحاذيه " [2]..

فهذا الموقف المتخاذل الذي وقفه المسلمون في حنين كان بسبب غرورهم. فقد رهبوا عدوهم وخافوا منه رغم كثرة عَددهم وقلة عَدده. وقد أوصلهم إلى ذلك غرورهم بكثرة عددهم. ولو كان هؤلاء المشتركون من المسلمين في حنين كثرة قوية ما رهبوا عدوهم القليل في عدده.. وقد صور القرآن الكريم في موقف آخر هذا التكاثر الضعيف في الأموال والأولاد بالغيث الذي يعجب الكفار نباته ثم يهيج فيروه مصفرا، ثم يكون حطاما، لا قيمة له. فهو تكاثر هش لا يفيد الأسرة ولا المجتمع الإسلامى، بل يكون عبئا ثقيلا عليه. وهو يشغل الإنسان عن طاعة الله ورسوله، بالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة، فهو يفاخر غيره من الناس في حطام الحياة الدنيا الفانية. وقد امتد هذا التفاخر بين الناس مؤخرا إلى القبور التي يدفنون فيها بعد موتهم. كما قال الشاعر:

أرى أهل القبور إذا أميتوا ::: بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخرا ::: على الفقراء حتى في القبور

وقد قال ابن عباس رضى الله عنه في هذا التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد: " يجمع المال في سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض

(1) الطبرى103/1. واقرأ القسم الخامس من كتاب صفوة التفاسير ص14 - تفسير سورة التوبة - للشيخ المرحوم محمد على الصابونى - الطبعة الأولى.
(2) نفس الصفحة من المرجع السابق.

" [1]. وذلك هو حال الدنيا ومتاعها الزائل الذي يغتر به وينصرف إليه كثير من الناس، تاركين العمل من أجل الآخرة الباقية في الجزاء والثواب.. تلك الكثرة المنغمسة في الشهوات والملذات كثرة ضعيفة ضائعة لا يرجى من ورائها خير ويقول ربنا عز وجل في ذلك:{ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾} [الحديد: ٢٠].

فالكثرة المطلوبة هى القوية في إيمانها وسلامة أجسامها وعقولها وعلمها وأخلاقها وعملها الصالح. فإذا كانت كذلك فهى الكثرة المستحقة لأن يباهى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره من الرسل والأمم يوم القيامة.. وقد دعانا القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة إلى الكثرة القوية. وحذرنا كلاهما من الكثرة الضعيفة التي يقول النبى صلى الله عليه وسلم فيها:♂**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**ـــ قالوا: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال:♂**لا أنتم يومئذ كثير.. ولكنكم غثاء كغثاء السيل**ـــ [2]. فقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين وقت أن تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها بأنهم كثرة ضعيفة كغثاء السيل لا تقوى على ما يصادفها من تيارات القوة التي تجرفها في طريقها غير مكترثة بكثرتها.

(1) التفسير الكبير للرازى 233/29. وانظرص82من القسم السابع عشر من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى.

(2) رواه أبو داود الطيالسى في مسنده عن ثوبان 133/4. وانظر منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور ص504. غثاء السيل: ما يتركه السيل من شوائب ومواد لا قيمة لها ولا تقوى على مقاومة تيار السيل.

وفى هذا السياق وفيما يتصل أيضا بالذرية وجَعْلِها ذرية قوية نافعة - نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن وطء الزوجة المرضع التي قد تحمل فتضيف ثقلا وعبئا جديدا إلى طاقتها المرهقة بالرضاع. وقد لا يكون في إمكانها أن تتحمل هذا العبء فينشأ نسلها ضعيفا هزيلا. فيزيد إلى ضعف الأسرة والمجتمع ضعفا جديدا. وسيأتى الحديث مفصلا عن الغيل الذي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين والمسلمات منه. حتى لا يكون النسل ضاويا هشا لا حول له ولا قوة...

* * *